قصة قصيرة

احتضار قطٍّ عجوز ...

د. محمد المنسي قنديل

ببطء وشاعرية ، نفذ الشيطان من فتحة ضيقة في سقف غرفتي . عرض عليّ صفقة مغرية : أن يأخذ كل ما بقي من سنوات عمري الخاوية .. لقاء لحظة واحدة من المتعة ..

لقد قبلت الصفقة على الفور .. وكنت كسير القلب حزينا فوق العادة ..

أوقفت سيارتي أمام باب المدرسة . دهست العجلات الورق الاصفر المتساقط . بعثت وشيشا كالرعدة . للخريف رائحة الاحتضار . سيارتي عجوز مثلي . كفت في المدة الاخيرة عن الاعطال المؤقتة . كأنها تستعد للموت النهائي . قلت للفرّاش اني اريد مقابلة حضرة الناظر .. أشار متكاسلا للداخل .. مبنى المدرسة له لون المطر العطن وبقايا الذباب . في الحوش الرملي انفرط عقد التلميذات الازرق . عيونهن براقة ومستديرة .. رمقنني بنظرات نزقة وجريئة لحد الخجل . تضاحكن حين اكتشفن كم أنا عجوز . حاولت أن أسير معتدل القامة .. ولكن رائحتهن ـ جالسات على المقاعد ، متكئات على جذوع الشجر ، يتقافزن فتهتز كل قطعة من اجسادهن ـ رائحة حارة مفعمة بالنضارة . وبعد عدة خطوات تحول فضولهن الى لامبالاة ... أدرن ظهورهن لي .. وواصلت السير وحيدا ..

نهض الاستاذ « سليم » من خلف مكتبه متهللا ..

ـ عبد التواب بيه .. يا لها من زيارة !

تصافحنا بحرارة أكثر قليلا من الود الذي يكنه كل منا للآخر .. جلست متعبا على المقعد الجلدي البارد .. انشغل هو بالضغط على الجرس .. قلت محاولا المرح :

ـ تلميذتك القديمة أصرّت على أن تدعوك لزفافها غدا ..

ابتسم متوددا :

ـ أصبحت سامية عروسة !!.. نضجوا سريعا وتركوا لنا الشيخوخة ..

ألح عليّ أن أشرب شيئا . وظل « الفرّاش » واقفا حتى طلبت فنجانا من القهوة .. أنا أكره القهوة..

واصل التحدث معي بشكل متقطع وهو يؤدي أعماله العادية . يوقع الاوراق . ويرد على التليفون . وينهر المدرسين . يحاول أن يبين لي ان آلته ما زالت بخير.. تأمر .. وتنهي .. لم تنسحب الى ظل المعاش البارد كما فعلت أنا .. أحيانا .. أحيانا يجعلني أكرهه ..

وضعت بطاقة الدعوة المزوقة على مكتبه . قرأها عليّ بصوت مسموع كأني لا أعرف ما بها . ثم أخذ يواصل أسئلته السخيفة عن العريس والعائلة والاجراءات .. لم أكن أرتاح له كثيرا .. لكنها صلات القرابة اللعينة ، وارتباط ابنتي سامية بكل ذكريات التلمذة .. سوف أفرغ من القهوة وأنصرف .. ليته لا يحضر الزفاف . قلت محاولا التخفيف من احساسي بالحنق :

ـ انت لست غريبا عن البيت بالطبع ..

وضع الفرّاش القهوة أمامي .. وفكرت .. انني مريض حتى أشعر بكل هذا الحنق . اتجه الفرّاش نحوه ومال على أذنه يهمس .. وضعت أنفي في فنجان القهوة. هتف سليم في عصبية :

ـ أدخلها فورا ..

احمر وجهه بشدة . فكرت في ضيق . انه يحاول ان يستعرض أمامي دورا من أدوار التسلط . كأنه لا يستطيع أن يؤجل هذه الامور الى ما بعد انصرافي .. دخلت فتاة ، مجرد تلميذة ، نحيفة نوعا ما ، ترتدي « الجينز » والسترة الزرقاء ، مثلهن تماما . رمقتني بالنظرة المستطلعة الجريئة نفسها . فاكتشفت كم يبدو وجهها غريبا . أصابتني رعدة لا مبرر لها . دق سليم المكتب بقبضة يده وهتف في لهجة عنيفة :

ـ اغلقي صدرك يا فاجرة ..

لم يبد عليها انها تأثرت بهذا العنف . مدت يدها بتراخ وأغلقت الزر العلوي من « البلوزة » البيضاء .

اخفت المثلث الابيض الذي كان يمتد من رقبتها الى اسفل . تركت الفنجان وانتبهت اليها بكليتي . زار الناظر مثل حيوان جائع :

ـ انت عار على المدرسة . يؤسفني ان هناك تلميذة مثلك في مدرستي ..

انهال عليها بقائمة اتهام مفزعة . عجزت انا عن الاستئذان والانصراف .. ظللت اتطلع اليها في انبهار ابله . البنطلون ضيق يبرز كل التفاصيل الممكن ابرازها. الشعر مشعث بعفوية مثيرة . وقائمة الاتهام طويلة ، تتضمن كل شكاوى أولياء الامور التي ساهمت في افساد أخلاق بناتهن . وثدياها متكوران ، في تمام الاستدارة .

فوجئت بها ترمقني بنظرة جانبية . تضع حولي جزءا من عينيها الواسعتين . كأن بيننا نوعا من التواطؤ الخفي ، غير مبالية بالضجة التي يثيرها الناظر . قال في حزم :

ـ انت مفصولة . ليأت ولي امرك ويتسلم أوراقك ..

اهتزت . بدا انها لم تع سوى الجملة الاخيرة . اختلجت شفتاها الوحشيتان كأنما تخفيان احتجاجا مكتوما . ازدادت حدة الناظر :

ـ خذي كتبك وغادري المدرسة فورا ..

وجدتني أتكلم . كلا . تكلم شخص آخر بداخلي . لم اكن اعرف من قبل انه موجود . كلمات متعثرة ، مرتعدة :

ـ قد تكون مظلومة يا حضرة الناظر .. يجب ان تعطيها فرصة للدفاع عن نفسها ..

التفت الي في دهشة . التقت عيناانا في نظرة مباغتة متسائلة. انزلت عيني عاجزا عن الاجابة وواصلت القول في اصرار :

ـ الفصل قرار خطير .. ولا أرى انها تستحقه .

تمتم بارتباك وهو مأخوذ باعتراضي :

ـ انها ليست المرة الاولى . ان سلوكها سيىء . منحرفة بكل معنى الكلمة . وجودها في المدرسة سوف يؤثر على بقية التلميذات ..

كان الشخص الآخر في داخلي مصمما على عدم التراجع :

ـ الفصل من المدرسة سوف يضيعها تماما .. انني واثق من ان قلبك الكبير لن يسمح بتدمير مستقبل هذه الفتاة .

هتف مدهوشا : « قلبي الكبير ؟!» . لقد وضعته في مأزق غريب . والفتاة بيننا ، ترقب صراعنا الساذج. اضفت كذبة أخرى :

ـ من أجل زيارتي الاولى يجب ان تسامحها ..

انني احس انها مثل ابنتي سامية .. و .. ابنتك أيضا ..

كنت اشم رائحتها . ذئب شره جائع . جلس سليم على مقعده . قال بصوت خافت خشية ان تسمعه الفتاة :

ـ انت تحرجني ..

رفعت راسي . قال الشخص الآخر بداخلي في تصميم :

ـ من اجل خاطري .

حدق في وجهي يبحث عن مبرر ، عن تغير ما .. لكن الشخص الآخر بداخلي حاصره ، حاصرني أيضا . قال في ضيق :

ـ هذه هي المرة الاخيرة .. عودي الى فصلك ..

القت علي نظرة قصيرة ، خاطفة ، مليئة بالانتصار . لم تكن تشكرني . غادرت الغرفة دون كلمة . تركت بيننا صمتا متثاقلا . وضعت الفنجان على فمي فوجدته فارغا . كنا غريبين . والشخص الآخر ينسل من داخلي . يجلس على مقعد مقابل ويرقب وجهينا الكئيبين .. قلت :

ـ شكرا على القهوة ..

تمتم في برود : « شكرا على الدعوة » .

تداخلت أصابعنا باردة ومرتجفة . دوى الجرس. أسرابهن الزرقاء . رائحتهن تملأ انفي . لم أجرؤ على البحث عنها . في الخارج رأيت الورق الاصفر المدهوس والاشجار العارية . والبرد يلفحني لعلني أستيقظ . قدت السيارة بسرعة كبيرة . ضغطت آلة التنبيه . تقافزوا من امامي لأقرب رصيف . سمعت سبابهم . ورأيت الشرطي يدون مخالفتي . أدور في حلقات متصلة كأني محموم . أشاهد الناظر نفسها ، وأرتكب الاخطاء نفسها . عدت للمدرسة . نظرت في ساعتي . كنت وحيدا كما قدر لي منذ زمن بعيد . حتى أحلامي تبددت وأصبح النوم جدارا أصم ، والطرق متشابكة ، والمبنى الاصفر الملطخ بخيوط المطر وبقايا الذباب .. يشبه مقبرتي ..

عندما عدت للمرة الرابعة أو الخامسة كان باب المدرسة مفتوحا . وبحرهن الازرق يملأ الشارع . وزحفت وسطهن بعربتي العجوز ، بقلبي الكسير النزق. أغوص بين أجسادهن الفتية الضئيلة . والرائحة تملأ انفي . سمعت صرخاتهن الخافتة ، وايديهن البيضاء تضرب مقدمة العربة ، وضحكاتهن حين يلمحن شعري الابيض ، بل ان احداهن قالت كلمة بذيئة حين لمحت عيني النهمة ..

.. ورأيتها .. منفردة فوق الرصيف المزدحم . تسير بثقة فلا تهتز الا أجزاء قليلة من جسدها . لماذا

لا انصرف ؟.. انني لا أعرف حتى اسمها .. اقتربت بالسيارة . سرت ببطء في موازاة الرصيف . ضغطت آلة التنبيه . أسرعت قليلا . توقفت . رأيتها قادمة . المثلث الابيض من صدرها عـــار .. ناصع .. انحرفت فجأة في شارع جانبي . أسرعت خلفهـــا . سمعت ضحكاتهن . أدركن بالغريزة انني أطاردها . كنت الهث والشخص الآخر يتمطى بداخـــلي . يفتح كـــل جروح الحرمان . أصبح الشارع خاليا . ووجهها متجهمـــا . ضغطت بعصبية على آلة التنبيه . ابتعدنا عن المدرسة . وجسدها في ضوء الشمس يتفجر بحيـــوية دافقة عما رأيتها في حجرة الناظر . وقفت في محاذاتها . لمحتني بطرف عينيها بلا شك . لعلهـــا تسخر مـــن حركاتي الصبيانية . أخرجت رأسي من نافـــذة السيارة .. تطلعت اليها في توسل صامت أن تستجيب لي .. بهذا الوضع لم تكن تستطيع تجاهلي .. قالت بتعال كأنهـــا لم ترني من قبل :

ـ ماذا تريد ؟..

المرة الاولى التي أسمع فيها بحة صوتها الغريب . كأنه يخرج من داخل أعماقهـــا لا من بين الاسنان .. بلعت ريقي .. قال الشخص الآخر :

ـ أستطيع أن أوصلك ..

قالت بحدة : ـ لماذا ؟.. هـــل تريد مقابلا لمـــا فعلتـــه ؟..

هتفت أدافع عن نفسي :

ـ كلا .. أنا عجوز لدرجة لا افكر فيهـــا في أي مقابل .. عجوز .. وحيد .. كما ترين ..

كنت اتحدث بطريقة مبتذلة .. حمقاء .. انفرجت شفتاها عن ابتسامة ساخرة :

ـ منزلي قريب من هنا ..

قلت متوسلا : ـ لن نذهب الى أبعد من ذلك ..

أدرت المحرك في سرعة خاطفة . لهث الشارع . والورق الاصفر . كانت بجانبي . كنت أخشى أن ألتفت فلا أجدها . لا يبدو عليها حيرة .. أو خوف .. كانت فاسدة ولا شك .. ورائحة هـــذا الفساد المثير يملأ انفي . رغم سنوات الاستقامة المضنيـــة ، ورطوبة الوحدة .. كانت هي أول نزواتي . ولعلهـــا آخرها . تذكرت ابنتي سامية . انها تضع الآن اللمسات الاخيـــرة على فستان الزفاف . لا أشعر بأي افتقاد لها .. عندما وقفت أتلقى العزاء في أمها .. كان الجميع أكثر حزنا مني ..

مسترخية تماما .. راسها مضطجع على حافـــة المقعد . مغمضة العينين . تأخذ أنفاسها وتزفرهـــا في عمق . الصدر المتكور مشرئب . والمثلث الابيض الناصع يتحرك صعودا وهبـــوطا .. شعرها متناثر ، يلمس وجهي ، حتى أن الشخص الآخر الموجود في داخلي .. هتف بي : اغتصبها في أي مكان .. قلت خائفا :

ـ اسمي عبد التواب ..

ـ غير مهم ..

والعربة العجوز تجري بهوس .. والمؤشر يرتعد . والنهر مشلول من كثرة ما غاض . كنت بحاجة لالتقاط انفاسي . تلمست بأصابعي المرتعدة خصلات شعرها . ابعدت رأسها وهي تهمس :

ـ وتزعم انك عجوز ؟..

قلت متوسلا : ـ ما اسمك ؟..

ـ دولت ..

ـ أنت في الثانوية ؟

ـ أجل ..

زمت شفتيها . سلطت عليّ عينيها الغريبتين .. سألتني مباشرة : « ماذا تريـــد ؟ » . كنت عاجزا عـــن صياغة الاجابة في كلمات مهذبة . والآخر في داخلي ، يدق جدار صدري مثل طفل شرير محبوس .. قلـــت خجـــلا :

ـ لي ابنة أكبر منك .. الليلة زفافها ..

ـ هل فعلت كل هذا لتدعوني ؟

ـ أنا أرمل .. ماتت زوجتي منذ عشر سنوات .. لم أعرف قبلها أو بعدها نساء أخريات .

ـ هل هذا عرض للزواج ؟..

ـ لا تكوني قاسية ..

لانت ملامحها بعض الشيء . كفت عن السخرية . لعلها أدركت مدى ضعفي .. توقفت . تسلل الشخص الآخر هاربا .. وتركني وحيدا . أسير نزوة حمقـــاء انا غير مسؤول عنها .. قلت فجأة :

ـ هل تريدين نقودا ؟

قالت في دهشة : ـ لماذا ؟..

أخرجت حافظتي . مددت أصابعي المرتعدة بورقة حمراء .. قلت :

ـ لا لشيء .. أنا بحاجة لان أعطيك شيئا ..

قالت في حدة : ـ أريد أن أنصرف ..

توسلت : ـ لا أريد مقابلا لها ..

ارتفعت درجة حدتها : ـ لا شيء دون مقابل ..

قلت : ـ خذيها وانصرفي ..

قالت : ـ أنت مجنون ولا شك ..

قلت : ـ ها هو الباب مفتـــوح ولا أستطيع أن امنعك ..

كنت أخاطب الجانب الشره فيها .. خلف عينيها وفمها الجائع وشعرها الاشعث . كنت أحاول أن أكون أقوى منها . نزلت مـــن السيارة . وقفت تتأملني في شك .. ثم مضت .. دون أن أحاول السير خلفها ..

... لم اكن اعرف ان ابنتي سامية بهذا الجمال . حاولت أن اقبلها فقالت ان هذا سوف يفسد زينة العرس . ضج البيت الصامت . جاء أناس لا أعرفهم ، ولا أعرف من اتفق معهم .. زينات فاقعة وكراسي صفراء مليئة بالعته . جاء طباخون وأزاحوا « حكمت » من موقعها التقليدي . هبط المدعوون كأنهم قادمون من كوكب آخر . أناس كنت أحسبهم اختفوا من الحياة بطريقة أو باخرى . وكانوا يعتقدون انني مت . تصافحنا بحرارة غير عادية ... وسامية فراشة وحيدة . جاءت بالشخص الذي يقف بجانبها من مكان ما .. حدثني بأكثر الطرق أدبا وتحفظا . وكانت كلمتي مجرد رأي استشاري . بلا قيمة تقريبا . ووسط هؤلاء المدعوين الغرباء يبدو ان هناك من يعرف ابنتي خيرا مني .. ان ما يربطني بها شيء عام .. لم اكن ادري انني أعرف هذا العدد الهائل من النسوة . يتركن لي أيديهن حتى أشم جيدا الرائحة التي تنبعث من أجسادهن . ومن عشرات الاحتكاكات في هذا الزحام تتولد شرارة الزواج الجنسية . تعبق الجو من أجل عروس الليلة .. ومع تصاعد درجة حرارة الحفل ازداد انفلات الجميع .. واصبح من الخطر النظر خلف ابواب الغرف المغلقة . كنت أهذي .. مجنونا .. مهرجا .. نزقا .. داخل جلدي المتحفظ البارد ..

« حكمت » واقفة في الركن تتأمل سامية . بثيابها الكئيبة كانت غريبة مثلي . منذ أن ماتت زوجتي والكلمة العليا في البيت لها . لقد بدأت أخافها .. حاولت الاندماج في الحفل . وأخذ والد العريس يملي عليّ شروطا لم أفهمها .. رددت كلمات المأذون في بلاهة . وفي النهاية وضع سليم يده على كتفي .

هل كان يريد ان يهنئني حقا .. أم يريد أن يضعني على كرسي الاعتراف ؟..

ـ أهلا أستاذ سليم .. شرفتني بالحضور ..

صافح سامية بحرارة وعاد اليّ . تغلغلت في نظراته الفاحصة . تحاول رؤية الآخر . لدهشتي لم أهرب منه . وقفت أمامه طفلا مذنبا . قلت محاولا الترضية : « هل لك رغبة في الشراب ؟ » . قال بمرح : « يتوقف هذا على النوع » . قلت : « هناك زجاجة مخبأة في درج مكتبي » .

لم يكن غاضبا لدرجة كبيرة كما توقعت .. تبعني . عندما أصبحنا وحدنا أدركت انه لا مفر من الحديث عنها .. وضعت كثيرا من الخمر في كوبه وقليلا في كوبي .. مزجناهما بالماء وتبادلنا ضحكة شريرة خاطفة . سألته مباشرة :

ـ هل غضبت مني عندما تدخلت بينك وبين هذه التلميذة ؟..

لوى لسانه داخل فمه .. تجرع الكأس مرة واحدة . اضطررت لملأه من جديد :

ـ الحقيقة لا أدري . قلت لنفسي انك لا تعرفهن . لذا رأيت قسوتي غير مبررة .. لو اننا تهاونا فسوف نفاجأ باخواننا الشرقيين وهم يؤدون تحية العلم معنا .. في طابور الصباح .

جاريته في الضحك .. قلت : « أنت تبالغ » . قال : « انني لا أعرف مدى تداخل سماسرة الجنس بين فتيات المدارس » .. قلت محاذرا :

ـ هذه الفتاة .. يبدو شكلها غير فاسد لهذه الدرجة ..

تجرع الكأس كلها وهتف :

ـ انها أسواهن على الاطلاق . انها لا تخجل . ولا تخفي ذلك . لست أدري لماذا هي حريصة كل هذا الحرص على الدراسة ..

فكرت . لعله هو أيضا يريدها . وهذه الرغبة تسبب له ذلك الخوف الهستيري . بدأ يصبّ لنفسه ويشرب . قال فجأة :

ـ أنا أكرهها .. أكرههن كلهن !..

عزفت الموسيقى زفة العرس . دارت ابنتي مع زوجها وسط صفوف المدعوين . كانوا يقبلونني . كنت سعيدا وكانت ابنتي جميلة .. لماذا لم أتعود على حبها من قبل ؟.. حتى « حكمت » أخذت تبكي . من الذي صنع هذا الزفاف البهيج ؟.. أتى سليم أفندي على نصف الزجاجة وهتف بلهجة خطابية :

ـ لقد فسد التعليم .. وهن يدركن انه لا فائدة .

كان ضعيفا مثل طفل . وصلت السيارة المزينة بالورد والبالونات . قبلت ابنتي بعين دامعة . حاولت أن أسند سليم فتهاوينا معا على الارض . غرقنا في ضحك عجوز متحشرج . وعدته قائلا :

ـ لن أعود لرؤيتها مرة أخرى . بحق عهود كل الصداقات السخيفة .

لم يفهم ما أعني .. سارت السيارة وانتشرت في الجو سحابة من أوراق الزهر الملون . أصبح البيت خاليا لحد الجفاف . كنت متمالكا نفسي . وكان سليم حشرة .. صرخت فيه :

ـ انهض أيها اللعين .. لن نقضي الليل على الارض !

واستلقيت على فراشي ونمت .. دون أحلام ..

.. الصباح شمس رقيقة . وحكمت صامتة . وجريدة مليئة بالوفيات المفاجئة . أنا العجوز الوحيد الذي أخطأه الموت .. هل حاولت سامية الاتصال بي أم نسيتني نهائيا ؟ دخلت عصفورة صغيرة الغرفة .

دارت فيها مستطلعة ثم حاولت الخروج . ورغم الضوء المتدفق من النافذة المفتوحة لم تستطع . فقدت حاستها نحو الحريـــة . عاودت الدوران . ترتطـــم بالجدران والمرايا . أخذت أضربها بالجريدة حتى لا ترتطم بوجهي. امتلأ البيت بحفيفها المفزوع . لا تهتدي ولا تكفّ عـن الدوران . روح هائمة ضلت طريقها للقبر . كنت أضربها وأتخبط معها . وأرتدي ثيابي في سرعة محمومة وأغلق زجاج النافذة حتى لا تفلت . وفزعهـــا الغريب يوقظ داخلي جوعا ممضا . يدفعني في الحاح . أغلقت بـاب الحجرة وتسللت هابطا الســـلالم . وزامت السيارة . كانت حكمت في النافذة ترمقني بعين تاقبة . يا الهي.. كم يكره كلانا الآخر . تداخلت الشـــوارع والاشجـار العارية والنهر وقطع السحب البعيدة . لمحت المبنـى الاصفر الملوث بالذباب . ربضت في الشارع الجـانبي . لعلي غفوت لان زوجتي خرجت من القبر وأعطتني زهرة من زهور الصبار . ولعلي كنت مستيقظا لان الطفـــل الصغير بصق على زجاج النافذة وكان قصده أن يبصق عليّ . ولعلي كنت ميتا ، لان البوابة فتحت أبوابهـا . ورأيت بحرهن الازرق ينساب خارجـا فأغمضت عيني وتلوت كل التعاويذ القديمة حتى لا أراها ..

أصابعها تدق زجاج السيارة .الشفتان الوحشيتان تتطلعان اليّ .. كنت قعيدا في سيارة مغلقة والاصابع تدق على جمجمتي .. فتحت الباب .. جلست بجانبي في صمت .. صدرها ما زال متكورا مشدودا ، والمثلث الابيض أوسع من ذي قبـل .. أشد نصاعة . غيّرت البنطلون وارتدت ثوبا قصيرا . حيـن جلست وضعت الكتب في حجرها . انحسر الثوب فظهر جزء آخر بكر فاسد من جسدها لم أره من قبل .. سرت ببطء .. كنت مقبلا على لحظة أخرى من لحظات العذاب المجنونة. حتى النهر ، بدا ناعما كثعبان يتهيأ للدغ .. وطيور الماء الرفرافة الساذجة لا تستحق الرثاء الجميل .. قلت :

ـ قد لا تصدقين ذلك .. ولكني .. أحبك ..

ضحكت بنعومة ، بتلك البحة المميزة :

ـ هكذا سريعا .. يا له من تصريح لا مبرر له !

كنت أهذي وأتكلم بسرعة :

ـ عندما كنت صغيرا كنت أخشى البرق . كان يخطف عينيّ بألوانه الرمادية الزاهية والضجة التـــي تحدث في اثره .. لكنني كنت أترقبه . يأتي فأحســه ينفذ الى داخلي .. فأشعر بالخوف .. وأبكي ..

انها ليست رقيقة معي . شعرها الاشعث يلطـم وجهي ورائحتها تملأ أنفي . وتقف بيننا هذه السخرية المريرة على شفتيها . لقد رأيت الموت أكثر من مرة وأنا أعبر النهر بحثا عن الاصداف الفارغة . وحـين عشقت قوس قزح وتلوثت روحي بضوئه الملون . مت وأنا أعيد تركيب الحياة التي عشقتها ، كما يجب أن تكون ، دون أن تتكرر لحظة ، ودون أن تموت لحظة . قلت لها :

ـ حاولي أن تفهميني دون شفقة .

قالت : ـ لماذا تتحدث بهـــذا الشكل المتباكـي السخيف ؟

لم تسألني الى أين نمضي .. ذهبت العربة بنـا الى مكان لم أكن أعتقد انني أعرفه . قلت :

ـ سليم أفندي سكر بالامس وارتمى مخمورا على الارض .

لوت فمها ولم تعلق بشيء ..

قلت باصرار :

ـ انه يقدرني كثيرا .. ولولا وساطتي لتم فصلك من المدرسة .

كان الرمل أصفر . والصخور مسنونة .. ضحكت في صوت خافت مبحوح .. أيها الثعلب العجوز .. هذا المكان يصلح لمقبرة .. وليس لممارسة الحب . أمسكت كتفها . قبضت بفمي على شفتيها الوحشيتين . لعلهـا تكفّ عن السخرية . طويت خصرهـــا النحيف تحت ساعدي . فوجئت بها أكثر عنفا . نار متأججة لا تحمل لفحاتها . لسانها يتلظى داخل فمي . شعرها الاشعـث يغطي وجهينا معا . لم أتمالك الا أن أسكن مبهورا أمام اندفاعها الفتي الحار . وأنا مجرد عجوز لاهث . قالت : أهذا ما تريد ؟ هل تسرّك رؤيتي عارية ؟..

اتسعت مساحـــة المثلث . تداخل لون الثدي الوردي مع سمرة جسدها .. أغمضت عينيهـــا كأنما تبتهل .. تقدم نفسها قربانا لاله وثني عجوز . وضعت يدي على صدرها . أحسست برغبة حارقة في البكاء .. سرت حرارتها ونبضاتها خـــلال أصابعي .. دم جديد يضج في عروقي المتعبة .. قلت في عجز حقيقي :

ـ لا أستطيع ..

غطت صدرها .. قالت بحدة :

ـ ماذا تريد اذن أيها العجوز القذر ؟..

كانت ترتعد .. ووجهها متقلص :

ـ أنت والناظر .. وبقية الخنازير الذين يريدون ولا يستطيعون .. ماذا تريد ؟..

قلت بائسا :

ـ أنا لست مثلهم واني أحبك ..

ـ قذر .. خنزير !..

والصحراء تزوم حولنا في صوت خافت . تستعد للعصف . والشمس تعري كل شيء . أمرتنـي بادارة المحرك . حاولت ذلك فأجهشت في البكـــاء . تفجرت داخلي ينابيع غريبة مـــن الحزن .. اهتز جسدي في نشيج متواصل .. جواد عجـــوز . كل المراهنات عليه خاسرة .. ولم يبق الا أن يطلق عليه الرصاص .. مدت

ذراعيها وضمتني .. ضمتني دون سخرية وهدهدتني مثل طفل . كان يجب أن أكفّ عن البكاء ، وأقود العربة .. أحسست فجأة ان دولت قد أصبحت مثلي .. هرمت هي .. وصغرت أنا .. وتقارب عمرانا .. قلت :

ـ هل تأتين اليّ في المنزل ؟

قالت ببساطة وود :

ـ سوف آتي غدا ..

سرنا فوق الطريق الممهد . قلت :

ـ سوف أصف لك البيت .

كانت الاشجار ما زالت عارية والارض مليئة بالورق الاصفر المتساقط . اقتربت لأقصى ما أستطيع من بيتي . كنت أعرض نفسي هكذا للفضيحة .. قلت لها :

ـ ها هو .. ذلك البيت الذي تحيط به الحديقة الجرداء ..

قالت باهتمام : ـ أتسكن فيه وحدك ؟

قلت : ـ أجل .. عندي فقط خادمة عجوز اسمها « حكمت » .

قالت : ـ لا أحلم سوى ببيت واسع أكون فيه وحدي ..

سألتها : ـ أين تسكنين ؟..

لوّحت بذراعيها في قرف : ـ قريب من هنا .. بيت صغير مزدحم بالمخلوقات والقاذورات ..

كانت تبدو أجمل من أي وقت مضى .. وأكثر رهافة .. تمنيت أن أقبلها ..

قلت : ـ لم أعد أذكر وجه زوجتي .

قالت : ـ ألا تحسّ بالبرودة في هذا البيت ؟..

قلت : ـ انه دائما بارد ..

وددت لو أسألها عشرات الاسئلة .. لكن هذه اللحظة الرقيقة لم تكن تسمح بفتح أي جرح ..

قلت لها : ـ ستزورينني حقا ؟..

قالت : ـ بالطبع.. ولكن ماذا ستفعل مع خادمتك العجوز ؟

قلت : ـ سوف أضع لها مخدرا في الطعام .

ضحكت .. قالت : ـ قف هنا .. لقد اقتربنا من الحي الذي أسكن فيه .. وسوف أذهب وحدي ..

ثم ظللنا جالسين نضع اللمسات الاخيرة على اتفاقنا الجنوني ..

أحسست بضربة شديدة فوق رأسي . امتدت ذراع غريبة من خارج السيارة . قبضت على عنقي . حاولت أن التقط انفاسي .. دمدم صوت غاضب بالسباب .. صرخت دولت :

ـ اتركه يا حموده ..

كنت أهتز ، والعربة ترتجف تحتي . كفّان خشنتان تضغطان على عنقي . وأنفاسي تتحشرج .. كنت أسمع صراخها وسبابه . لم يتركني الا بعد مدة.. اكتشفت انها قامت من جانبي واستدارت حول العربة وأخذت تجذبه بعيدا عني .. هدد :

ـ لن أتركه الا مقتولا ..

رأيت طوله الفارع ، وملامحه الشابة القاسية . كان أكبر منها بقليل .. ولكن مظهره لم يكن يبدو عليه انه تلميذ بأي حال من الاحوال .. أمرتني بصوت حازم:

ـ انصرف أنت .. اذهب حالا ..

ضرب بقبضته مقدمة العربة في عنف .. وصاح فيّ :

ـ انزل .. لو كان لديك ذرة من الشجاعة ..

أدرت السيارة . ركلها . حاول أن يمد ذراعيه من خلال النافذة وهو يدمدم :

ـ تهرب يا جبان ؟..

اعترضته . دفعته رغم قوته البدنية وهو ينصاع لدفعاتها . بدا جسدها الوحشي جميلا وغريبا وهو يدافع عني . وصلت للمنزل .. كانت حكمت نائمة لحسن الحظ . وحجرتي مغلقة كما تركتها .. ورأيت العصفور الصغير ساكنا بلا حراك على أرض الغرفة ..

... مثل بومة عجوز انشبت حكمت عينيها فيّ . قدمت لي شاي الصباح باردا .. ولم تلق عليّ التحية . نسيت هذه العادة أيضا .

قلت محاولا المرح : ـ حان الوقت لأتخلص منك..

ردت بكآبة : ـ لم يعد الزمن يتحرك .. لقد تأخر أوان كل شيء ..

وتركتني . كانت الارض التي حول منزلي والتي أسميها حديقتي مزدحمة بالورق الاصفر . لا أدري من أين تساقط .. لم أتصور انه كان يحيط بي ذات لحظة كل هذا الورق وهو أخضر .. يبدو ان الزمن قد توقف عن السير فعلا ، ولم يبق الا أن تتوقف دقات قلبي وتتساوى أطراف المعادلة .. تمنيت أن تمد الشمس ذراعيها وتدخل غرفتي . لكنها بقيت في الخارج تغمر كل الاشياء التافهة ، ولا تأبه بي .

تساءلت حكمت بسخرية : ـ ألن تخرج اليوم ايضا ؟..

قلت : ـ لو ذهبت أنت فلن أغادر البيت أبدا ..

كنت جافا ، قاسيا ، والموت يأتي متوثبا .. قط أجرب غريب الشكل .. زائغ النظرات .. بلا ذيل تقريبا .. قفز من الحديقة ووقف على حافة النافذة . لم يستأذنني في الدخول . تشمم الحافة تحت أقدامه ثم رفع رأسه بغتة وبرقت عيناه . لقد اكتشف شيئا . دار بعينيه في ثقة أخافتني . قفز داخل الغرفة . نهضت مفزوعا . خشيت أن يختطف روحي ويمضي . كنت عجوزا مثل كل العجائز .. أخاف الموت لحد

الموت . لم يأبه بي . دار في الحجرة ثم قفز على حافة النافذة مرة أخرى . رأيتها في فمه .. عصفورتي الميتة الصغيرة .. روحي اليابسة التي ساهمت في قتلها ولم يعد فيها شيء يستأهل المضغ .. أيها القط الغريب .. اذهب الى سيدك .. ابلغه اني قد خسرت الصفقة ..

عندما جاءت الظهيرة .. صرخت في حكمت بحدة :

ـ ابتعدي عني .. انت تذكرينني بالموتى ..

وقفت أمامي .. تساءلت بلامبالاة : ـ ماذا علي أن افعل ؟

ـ انصرفي .. اذهبي الى اي مكان .. لا اريدك في بيتي .. دعي لي فرصة حتى اتنفس ..

همهمت : ـ ايها المريض المجنون ..

وبعد برهة رأيتها تعبر الحديقة في هدوء . تغلق الباب الخشبي ثم تلقي عليّ نظرة كئيبة متسائلة . سارت في موازاة السور وقدماها تجرشان الورق الاصفر . وتقافز القط فوق السور قادما في عكس اتجاهها ، منتشيا بالشبع . وقف فوق حاجز الباب ثم تكوم .. ونام .. وبقيت وحدي ..

تدق الساعة في بطء رتيب .. وكل صنابير البيت تقطر .. لا أحد في الطريق .. لحظة غريبة من لحظات المدينة المزدحمة . غرفتي تطل على الحديقة . والحديقة تطل على الشارع . وأنا فوق مقعدي مومياء منسية . أغمضت عينيّ فحلمت بزهرة صبار .. وفتحت عينيّ فرأيت دولت أمام باب الحديقة بالقرب من القط النائم ..

مترددة .. تتلفت وتعاود النظر من خلال فتحات السور . تقارن بين وصفي وما تراه الآن . لعل الحديقة أكثر هرما وأشد كآبة مما تصورت . ظللت صامتا مدهوشا.. كلمرة أراها فيها تعني مفاجأة بالنسبة لي. كل خطوة نحوي تبدو أكثر مما أستحق . التقت عينانا في وميض خاطف مفعم بالمتعة والموت . ازاحت الباب ودخلت . تناهى اليّ صدى خطواتها قادما من حلم بعيد .. كيف يتم الامر بمثل هذه البساطة الآسرة ؟.. تأتي قربانا طازجا لاله شيخ عجوز كفّ الجميع عن عبادته ، وكفّ هو عن الاعتقاد في نفسه . احسست بأنفاسها في بيتي ، في حجرتي ، حارة . تبدو قطرات البرودة المتكاثفة على الجدران . انها تقتحمني وتشرخ عزلتي الى الابد . يحدث هذا في فترة قصيرة ، كأنها صدمة كهربية . لم أجرؤ على ادارة رأسي . استدارت ووقفت قبالتي . رأيت وجهها الوحشي البالغ البراءة.. لماذا تبعث داخلي هذا الجوع المضني ؟..

وضعت يدها أسفلَ رقبتي . حركتها حتىاستوت كفها على لحم صدري . دق قلبي ليرسلَ خلال أصابعها كل ما يقدر عليه من نبضات . قالت :

ـ هل أنت نائم ؟

ابتسمت في وهن ، قلت :

ـ كنت أحلم بك .. حين عبرت حجراتي الخالية وجئت اليّ . وضعت يدك على صدري بالقرب منقلبي. وسألتني : هل انت نائم ؟.. فقلت : انني أحلم بك ..

تأملت دولت الجدران العارية .. قالت :

ـ يا له من بيت رائع ، كأنه مقبرة شاسعة تسع كل الموتى ..

ضحكت . انها مقبرتي وحدي . وسوف أكون تعس الحظ حين أموت بعيدا عنها .

قالت : ـ أريد ان اتفرج عليه.. اريد ان اعرفه.. انت وحدك .. أليس كذلك ؟..

قلت : ـ انني أنتظرك من الف عام .

جثت على ركبتيها أمامي . وضعت رأسها بين يديّ . كانت رقيقة كما لم ار رقة من قبل . مسحت على شعرها بكفي .. وظللنا صامتين .. استيقظ القط . انتصب ورمقنا في حذر .

قالت : ـ انهض لنر البيت معا .

بدا كأنها قد قررت أن يكون هذا بيتها ، وكنت على استعداد لان أهبه لها عن طيب خاطر . حين جئت امامي ووضعت رأسها بين يديّ ، كانت هذه لحظتي الوحيدة الحقيقية . لقد ابتهلت اليّ في صمت . لم ادر لأي شيء ابتهلت ولا لأي قوى غامضة توجهت . ثم هذا بين يديّ . ومضت اللحظة كالبرق الخاطف . وما بقي هو احتضارات الموتى .

.. بيتي الواسع . جحر القط العجوز . مليء بالطرقات الضيقة والسلالم المتآكلة والغرف السحرية . هذه حجرتي . وهذه حجرة سامية . وهذا فراش حكمت .. وهذه حجرة لم أدخلها منذ عشرة اعوام . على السلم امسكت خصرها فاستندت الى السياج وانغرس صدرها في صدري . شفتاها قطعتا مخمل دافىء . أفلتت مني وجرت . رنت ضحكتها كالاجراس في المنزل الصامت . صعدت . هبطت . عبثت في كل أزرار المصابيح الكهربية . فتحت الثلاجة واخذت تلهو بدجاجة باردة . دخلت في شعرها الاشعث . ازاحت ضحكاتها الغبار المتراكم من عشرات السنين .. من اين ابدأ ؟.. معركتي الاخيرة التي لا جدوى من محاولة تأجيلها ..

قالت : ـ كيف تحتمل الحياة وسط هذه الرطوبة ؟..

قلت : ـ انها درجة الرطوبة المناسبة حتى لا تتحلل أنسجتي .

قالت : ـ لكنه بيت رائع في حاجة لفتاة رائعة مثلي .

كان السرير واسعا مثل أرض مجهولة .

صرخت بها : ـ أرجوك يا دولت لا تفتحي هذه الغرفة .

لم تأبه بصراخي .. مدت يدها وفكت أزرار قميصي .

قالت : ـ يا لله .. هذا الشعر الابيض في صدرك .. يا لله .. كم يبدو هذا بالغ الاثارة والجمال !

الغرفة معتمة . لم تدخلها قدم منذ سنوات عشر. العنكبوت هاجع ، يصل قطع الاثاث بخيوطه . السرير مرتب ، بارد ، كأن الجثة قد فارقته للتو . كنت أخشى أن تراني حكمت .

عرق جسدها .. سبيكة دافئة من النحاس المصفى .

قالت : ـ أهذه حجرتها ؟..

توسلت اليها .. دعينا نخرج . امتلأ أنفي برائحة الطيب الثقيل والزعفران .. كنت قد نسيت ، أو خيل الي أنني نسيت . لكن الرائحة الآن تعبق في أنفي ، كأن لم تتبدد لحظة واحدة . فتحت دولت النوافذ فدخلت الشمس كأنصال السكاكين الجارحة . وضعت يدي على وجهي . مدت يدها وأزاحتها ..

قالت : ـ أنت ترى انني لا أخجل . لا يوجد ما يستوجب الخجل .

ثم قالت : كأنك لم تكن متزوجا من قبل ..

قلت : ـ انني لا أريد .. اشعر بخوف قاتل .

فتحت الدولاب بعنف . أزّت العضلات الصدئة. تجمعت سحابة من الغبار الخانق ..

قالت : ـ أهذه ثيابها العتيقة ؟..

امسكت كومة من الثياب المعلقة والقت بها على الارض .. انفرطت الثياب الغريبة الحائلة الالوان . فرو قديم تحلل فور ملامسته الارض . معطف متآكل الاطراف . وأردية كانت صفراء ، وكانت خضراء ، وكانت حمراء . كنت مبهوتا . عفن وزعفران وذكريات ميتة وأصابع لا تريد أن تكفّ عن نبش القبور .. تضحك وهي تهتف :

ـ يا لها من ثياب ثمينة مثيرة للسخرية !..

صدرت من جوف الدولاب خربشات مذعورة .. تقافزت فئران صغيرة سوداء على أرض الغرفة .. هرعت تبحث عن مخبأ آخر .. وقفزت أنا أيضا مثل طفل مذعور .. وأغرقت هي في الضحكات .. أصبح جسدها كله في موازاة جسدي ..

قلت : ـ يا دولت .. يا دولت .. لا فائدة .. انا بارد اكثر مما ينبغي ، وأنت حارة اكثر مما ينبغي ..

قالت : ـ حتى الرغبة .. معدية ..

كنت أنا في حاجة الى دم جديد .. لعله يبعث داخلي دورة دموية جديدة ..

لفت ذراعي حولها .. أحسست بأضلاعها تدخل بين أضلاعي .. كانت هي الطوف الذي أتعلق به . شفتاها الوحشيتان تقبضان على وجهي . تزيلان ما عليه من تجاعيد . لعل جلدي يعود مشدودا شابا .

هتفت في صخب قاس : ـ وهذه أدوات زينتها ؟

أمسكت حقيبة مستطيلة ، أزاحت الغبار الذي عليها ثم فتحتها بعنف ..

قلت متوسلا : ـ لك ما تشائين .. اي مبلغ .. ولكن ابتعدي عن هذه الغرفة .

أخرجت المحتويات . نثرت سحابة قرمزية من البودرة المعطرة . رمت بالمكاحل الفضية ، ومشابك الشعر الملونة ، وأصابع الشفاه والورود الذابلة .. حاولت التقاط الاشياء التي تلقيها .. وأنا أتوسل .. وأهدد تهديدا أجوف .. المناديل المطرزة .. قطع الدانتيلا المتهرئة . ثياب الاطفال الصغار الذين لم يولدوا بعد .. البراقع والطرح المشغولة بالترتر .. ودولت تضغط بجسدها . تحاول ايقاظ كل الرغبات الميتة .. وأنا أتحرك عاجزا عن السباحة في مياهها الحارة . أخرجت الحلى وعقود الزينة .. الاقراط والاساور والخواتم والقلائد .. نثرتها في عرض الغرفة وهي تصيح :

ـ حلى مزيفة .. كلها مزيفة .. قطع رخيصة من الزجاج !

أمسكت الحلى في فزع حقيقي .. للحظة نسيت دولت والمقبرة التي ننبش فيها معا .. كانت مزيفة حقا.. قطع زجاجية ملونة .. كيف حدث هذا ؟.. أهي سامية .. أم حكمت ؟.. أم ان زوجتي قد فعلت ذلك قبل أن تموت ؟..

جلست دولت أمام المرآة وأخذت تلطخ وجهها بالمساحيق القديمة ، وتضع على رأسها القبعات المتربة.. كانت عارية تماما .. دون خجل .. ودون تبذل .. جسدها النحاسي خليق بالتبتل ..

تقول في دعة : ـ دعنا نحاول مرة أخرى ..

من أين جاءتها كل هذه القدرات المتناقضة : أقصى حدود القسوة والحنان ..

حتى الصور ألقت بها وهي تقول في سخرية مرة :

ـ لو أطلت البحث قليلا فسوف تجد رزمة من رسائل رجل آخر .

ضحكت بشراسة ، فأخذت أقبّلها . أذنها ورقبتها وبطنها . قبّلت فقرات ظهرها واحدة بعد أخرى . تضوّع جسدها بين ذراعي عطرا ملتهبا . كأنها تزينت بالمر والفلفل وكلّ بهارات الشرق الغامض .

قالت : ـ انا ازداد جوعا بين ذراعيك ..

صعدت كل السلالم وهبطت . وقفت فوق جسدي . داست بقدميها على صدري العاري .. بدت طويلة شامخة يوشك راسها ان يقارب السقف .. هذا الجسد العاري البعيد المليء بالمنحنيات الناعمة . ضخم رغم ما يبدو من نحوله داخل الثياب ..

كانت صور ساميـــة صغيرة . ذات ضفيرتين ساذجتين .. صور أخرى لحكمت وهي ترمقني بنظرة غريبة .. ولي وانا البس الطربوش في وضع هزلي .. وصور لاناس آخرين لا أعرفهم .. لعل بينهم عشيقا لزوجتي .. ماذا افعل ؟.. ادور طويلا في حلقة مفرغة. هل ارتدي ثيابي ؟.. ام اجمع تذكاراتي وتوابيتي ؟.. ام استطيع اكتساب الشجاعة لانتحر ؟..

واخيرا قالت بزهق وملل حقيقيين : ـ لا فائدة منك على الاطلاق ..

كان شعرها يغطي الوسادة .. وقفت بجوار النافذة لعل هناك نسمة باردة .. انتظرت ان تتكلم لكنها لم تفعل .. مددت اصابعي المرتعدة . وضعت عدة وريقات مالية جنب الفراش .. تمنيت أن تخفف قليلا من حدة نظراتها .. ليس ثمة هواء بارد في النافذة .. البرودة في داخلي .. أتدثر بالثياب العتيقة .. كل تذكاراتي ممزقة ومنثورة في انحاء المنزل .. رايت القط يتسلل بحذر من فتحات السور . كنت أخشى التطلع للخلف حيث يرقد جسدها العاري المتحفز .. ظلت عيناي متشبثتين بالشارع الخالي والقط المقطوع الذيل. حتى رأيته .. يستدير عند منحنى الشارع .. يلقي على منزلي نظرة مستطلعة ثم يقف على الرصيف المقابل.

لم أتمالك نفسي .. صرخت :

ـ هو .. ما الذي جاء به الى هنا ؟..

ابتعدت فزعا عن النافذة . جثوت بجانب السرير. نظرت اليّ مدهوشة .. هتفت :

ـ انت الذي قلت له على عنوان البيت ..

نهضت ببطء . سحبت عريها من فوق السرير . تطلعت من خلال النافذة .. انعكس الضوء على صدرها وبطنها . تولدت الرغبة من خلال فزعي .. استدارت.. تمتمت ببطء :

ـ انه ينتظرني ..

ارتدت ثيابها ببطء . أصبحت فجأة غير موجودة بالنسبة لي . جمعت الوريقات المالية . وضعتها في حقيبتها . خرجت . سمعت صوتها وهي تعبر الممرات. وهي تهبط الدرج . وهي تتركني . تعبر الحديقة دون أي التفاتة . كانت متجهة بكليتها نحوه .. ذلك المدعو حمودة .. يقف منتصبا . ليس مترهلا .. شعر صدره أسود في غالب الاحيان .. وقفا قبالة بعضهما.. تحدث وهو يحرك يده في عصبية .. لمست دولت صدره في استعطاف . أزاح يدها بعنف .. لم تكن خائفة .. كنت أنا الذي يرتعد . ادار راسه بغتة فابتعدت عن النافذة . ثم عاودت النظر بعد برهة . رفع يده وأهوى على وجهها بصفعة قوية .. فكرت فزعا .. سوف يقتحم المنزل الآن .. لم تتراجع .. ظلت واقفة أمامه .. مالت برأسها واستندت بجبهتها الى ذراعه وسكنت . سكنا معا . سار .. وسارت دولت خلفه حتى اختفيا ..

.. هذا البيت الواسع مقبرتي .. لكن متى تأتي اللحظة ؟.. هيات أكفاني وحطمت تذكاراتي .. صعدت السلالم التي صعدتها .. ودخلت الغرف التي دخلتها.. رأيت كل شيء محطما.. الاطباق ، الستائر ، الاوراق ، الملابس .. من الذي فعل كل هذا ؟.. انا ، أم هي ؟.. أم ان هناك قوى مدمرة كانت مختبئة في اركان المنزل ؟ قادني العطر العفن الى غرفتها .. رأيت جثتها ممددة على السرير . هيكل عظمي متكامل الاعضاء تحوطه أكاليل الزهر اليابسة .. يتصاعد من جوفه خيط رمادي من البخور المحترق . جلست صامتا .. اي نوع من الصلوات ينبغي عليّ ان أتلو ؟ وحين أردت الهروب من الحجرة تعثرت في العظام .. تدحرجت جمجمتها امامي .. ارتطمت بالدرج الهابط .. درجة وراء اخرى .. اصطدمت بالارض وتقافزت عدة مرات حتى استقرت جنب الجدار .. وعلى سريري رأيت قطعة داخلية من ملابس دولت .. معطرة .. حين فردتها تساقط منها زهر الصبار .. وتراب المقابر الناعم ..

فتحت عينيّ . فوجئت بعيني حكمت في مواجهتي .. كان في يدها قطعة مطوية من القماش ، فحسبت انها تريد كتم انفاسي .. وضعتها على جبيني .. بعثت البرودة قشعريرة في داخلي فاستيقظت .. راسي كله مبلل .. والوسادة كذلك .. لم يطاوعني صوتي .. قالت :

ـ لا تتكلم أيها العجوز الابله .. منذ الامس وانت تهذي .. لقد عرفت كل شيء ..

نظرت اليها مفزوعا .. رفعت الكمادة ووضعت أخرى اشد برودة ..

ـ لقد وقفت بعيدا . رأيتها وهي قادمة ، ثم رأيتها وهي منصرفة .. لم أتصور أن يصل بك الجنون لهذه الدرجة ..

كنت مدهوشا لانني لم أمت . لقد تعرضت لخدعة . أقمت طقوس احتضاري دون جدوى .. نهضت حكمت أخيرا .. قالت وهي تغادر الغرفة :

ـ لقد حطمت كل شيء .. وليتها حطمت راسك ..

انصرفت . كنت احتفظ بسري تحت الغطاء .. قطعة ثيابها الداخلية .. امسكتها بحنان بالغ .. كأنها

قطعة من نحاس جسدها . دخلت حكمت الغرفة على فترات متفاوتة .. تتظاهر بانها تعيد ترتيب الاشياء المبعثرة ثم ترمقني بعينيها الصقريتين .. لم .. لم أكن آسف على شيء . لعلها كانت تعرف ذلك ، وهذا ما ضاعف من حنقها عليّ .. حين حاولت النهوض آلمتني كل عضلات جسدي . وقف القط على النافذة يتشمم في كل أرجاء الغرفة . لم يكن هناك سوى جثتي .. كان أجرب مثل سجادة قديمة . متساقط الشعر كأشجار حديقتي .. وحيدا مثلي .. جاءت حكمت وضربت مصراع النافذة بحنق .. قفز القط للخارج . أحسست بضربة النافذة فوق رأسي .. كانت تود أن أصرخ فتشتبك معي . لذت بصمتي غير الآسف . كانت هذه أشد فترات احتضاري سعادة ..

سمعت ضجة في الخارج .. حكمت تصرخ ، وصوت آخر يرد عليها في حدة .. انها دولت .. جاءت من أجلي .. لن تستطيع حكمت أن تمنعها .. لا أحد يستطيع منعها . دخلت دولت وهي تلهث . دخلت حكمت خلفها وهي تحاول جذبها للخارج . صرخت في حكمت :

ـ اتركيها ..

لم تأبه حكمت بي . واصلت الجذب .. لكن دولت دفعتها في صدرها دفعة قوية .. ترنحت حكمت .. استندت على الحائط .. ترددت قبل أن تقوم بمحاولة اخرى .. وقفت دولت أمامها في حزم .. وعاودت أنا الصياح :

ـ اتركينا وحدنا ..

ادركت حكمت انها هزمت للمرة الثانية . حدقت بي مدهوشة وحانقة .. خرجت وهي تكرهني كما لم يكرهني أحد من قبل . أشرت لدولت أن تجلس على حافة السرير .. ظلت واقفة .. متباعدة .. تتطلع نحوي ـ هي أيضا ـ في عداء .. عاودت انكماشي للداخل ..

ـ ماذا تريدين ؟..

اقتربت من النافذة .. قالت بضيق :

ـ هذا الناظر اللعين .. لقد وقع اليوم قرار فصلي ..

قلت بغباء : لماذا ؟..

ـ لا يهم .. لا أريد أن أفصل .. اتفهم ؟ لا أريد ان يطبّق عليّ هذا القرار .

قلت بالغباء نفسه .. بالضعف نفسه :

ـ وماذا عليّ أن أفعل ؟..

استدارت . واجهتني في شراسة :

ـ أنت صديقه . اذهب اليه .. افعل معه اي شيء ..

قلت في فزع :

ـ مستحيل .. انت لا تدركين ماذا تفعلين بي ..

ـ لا أعرف غير ان عليك أن تتحرك .. أن تفعل شيئا من أجلي .. هل تحسب انك اشتريتني بنقودك القذرة ؟

لو انها فقط تخفض من صوتها قليلا .. انني أعرف ان أذن حكمت ملتصقة بالباب كانها خفاش .. قلت في عناء بلا قيمة :

ـ المفروض ان الناظر لا يعرف بعلاقتنا .. هذا مهين لي .. كيف أستطيع مواجهته ؟..

ردت ببرود :

ـ ولماذا لم تتذكر هذا حين وقفت بعربتك في طريقي مثل اي مراهق ؟

توسلت اليها :

ـ انني مريض ولا استطيع الحركة ..

ـ بل سوف تنهض الآن .. وتمضي معي قبل انتهاء وقت الدراسة ..

كنت أعرف انني سوف أطيعها .. لكن الامر كان مهينا لدرجة لا تحتمل ..

ـ لا أقدر على مواجهته .. الموت أهون .

ـ سأنتظرك خارج البيت حتى تفرغ من ارتداء ثيابك .

لم تنظر خلفها وهي تترك الغرفة . سمعت خطواتها تدق الارض في ثقة . وحكمت تزوم مثل كلب. تحاملت حتى نهضت . رأيت ظهرها وهي تعبر الحديقة وتقف خارج الباب الخشبي . جاء القط الاجرب ووقف على حافة السياج بجانبها .. أخذت تداعبه ثم حملته ومضت به بعيدا عن عيني ..

أحسست اني على وشك السقوط .. سرت خطوة وراء أخرى . ثيابي كلها مكومة في ركن . بحثت عن ثياب أخرى نظيفة فلم أجد . انها حكمت مرة أخرى . تناولت الثياب المتسخة . عرق وزعفران وعرق .. وقفت حكمت عند الباب تتأملني وأنا نصف عار ممسكا قميصا متسخا .. قالت وهي تتظاهر بالهدوء :

ـ لقد سمعت كل شيء ..

ـ توقعت ذلك منك ..

ارتديت القميص .. وأمسكت البنطلون .. قالت بفزع حقيقي :

ـ أنت لن تذهب ..

ـ هذا شيء لا يخصك ..

ضحكت في هستيريا مفاجئة :

ـ لا يخصني .. هذا البيت الواسع الكئيب المفعم برائحة الموتى .. لقد حملته طويلا على ظهري .. قبل أن تموت زوجتك .. وقبل أن تولد ابنتك ..

قلت ببرودة :

ـ هذا لا يعطيك حق التدخل ..

اقتربت مني .. تلون صوتها بنبرة غريبة :

ـ كيف يحدث هذا ؟.. انا الـــذي أعددت لك الطعـــام .. وحملت فضلاتك المتسخة .. وسهرت بجانبك في ليالي المرض والحزن .. ماذا يمكن أن أكون ؟ الا يعطيني هذا الحق في ان انقـذك ؟.. الا أراك تموت أمامي من المهانة ؟.. لماذا تفعل كل هـــذا بنفسك ؟.. انها أصغر من سامية ..

تشبثت بي .. غرست أظـــافرها في كفّي .. دمدمت :

ـ لن تذهب .. لن أدعك تذهب ..

رفعت يدي وأهويت على وجهها بلطمة هائلة حتى انها تكومت على الارض دون أن يصدر عنها أي صوت . توقفت قليلا مترددا . ماذا أفعل ؟.. ثم عدوت خارجا من الغرفة .. هذه المرأة المجنونة .. كانت تحبني ..

أخرجت العربـة . دهست الزرع وأصص الورد التي كنت مفتونا بها . وبدأت طقـوس المهانة . كانت دولت واقفة والقط في حضنها يتطلعان اليّ في تواطؤ خفي . ركبت بجانبي . معادية كما هي .. لا جدوى .. الشجر عار .. والطرق زلقـــة ، والعابرون موتى ، والسحب جافة ، والنهر غـــائض ، والبيوت نعوش . عزّ الزعفران وشحّت مادة التحنيط .. استنجدت بكل أيامي الماضيـــة . بمكتبي في الادارة يئزّ فيه جهـاز التكييف على مدار الفصول . بل الموظفين وقـوفا أمامي محنيي الرؤوس .. بالاوامر الاداريـــة التي أصدرتهـا والجزاءات التي وقّعتها .. لكنهم تخلوا عني .. تركوني أدير مقود السيارة وأعبر الشـــوارع . وأحفّ بسور المدرسة الاصفر الملطخ بفضلات الذباب . لم تكن تنظر اليّ . كنت فقط أرى جانبا من وجههـــا وأحس بها ـ بأكملها ـ حارقة في داخلي . أتلوى لعلّي أستطيع أن ألدها . لعل في ولادتها خلاصي . لقد مت بالامس .. وهـــذا كشف حسابي الاخير . مزقت حبلي السرّي بأسنـــاني . وغرست صـــدري بالدبابيس وهربت . شربت اللبن الصناعي مخلوطا بدم البوم الذي لا ينـــام الليل .. وتسليت في طفـــولتي بقتل كل العصافير الدورية . وأسقطت كل زهـــور الشجر الاحمر .. بواسطـــة سلة صغيرة استطعت احضار كل الارواح الشريرة حتى تخبرني بأسرار الطلاسم .. شققت النيل بالمسطرة فرأيت القاع مليئا بالعظـام العارية المتألقة .. أخـــذت كل شهاداتي العلمية عـن مدرسين مصابين بالشذوذ الجنسي . اختبأت أنا وفئران المـــدينة طوال فترة الحرب في سراديب المجاري العمومية . ومع أول صفارة أمان خرجت رافعا الرايـة التي انتصرت فنلت وساما .. ترقيت في وظيفتي على اثر صفقة محـدودة مع الشيطان .. بعته روحي ونلت درجـــة وعلاوتين . وعندما جاء الطوفان الاول استبدلت جزءا مـن معاشي بقمة جبل عالٍ .. وهبطت مع انحسار المياه فأكلت البقلّ والعدس والحنظلّ . وضاجعت بقـرة سماوية فأنجبت طفلا ميتا ، قدمته قربانا حتى نلت درجة المدير العام .. وجاء الشيطان يطالب بتنفيـــذ اتفاقنا فأجّلته حتى استوفى أقساط المعاش .. وغالطته في العد .. لكنه عاد اليّ .. وكانت روحي مثلّ طفـــلة ساذجة لا تدري كيف تمت المقايضة .. ولا على أي شيء تمت ..

نظر « الفرّاش » الينا في حـيرة .. نحوي .. ونحوها .. كان يحاول أن يربط بيننـــا .. أدركت ان لديه أمرا بمنعها من الدخول .. قلت وأنا أرتعد :

ـ أريد مقابلة حضرة الناظر ..

أشار نفس الاشارة الاولـى .. سرت على المشى الرملي . كنت أحاول أن أتقدم خطوة عنها .. الا أسير موازيا لها .. حتى هـــذه الفرصة لم تتركها لي .. رمقتنا عيون التلميذات المشدوهـــة . رأيت رؤوسهن الصغيرة الشريرة تميلّ وتتهامس .. وأصواتهن الجارحة ترتفع بالضحكات ..

الناظر في مواجهتي . كان جالسا خلف مكتبـه ، منهمكا فوق بعض الاوراق .. لو انـــه يختفي بطريقة غامضة .. تخطينا عتبـــة الباب .. لم أجرؤ عـــلى الاستئذان .. رفع رأسه مدهوشا حيـن رآني .. ثم احمرّ وجهه بصورة مباغتـــة .. صرخ في هستيريـة حـادة :

ـ أخرجي ..

فاجأتنا الصرخة . تلقتها دولت بثبات . استدارت وخرجت وهي تدق أرض الغرفة الخشبية . تعيد عليّ أوامرها . جلس هو على المكتب .. رفـــع يديه وغطى بهما وجهه وأنا أمامه كالتلميذ العاصي .. لم أجرؤ حتى على الجلوس .. همس :

ـ انني .. انني لا أصدق ..

قلت وأنا على وشك البكاء :

ـ أنا قادم من أجلها ..

ـ كفى .. كفى أرجوك .. أنت لا تفهم .. كيف يمكن أن تفعل بنفسك هذا ؟..

جلست على المقعد فجأة .. أحسست كمن شلّت ساقاه :

ـ أرجوك .. تراجع عن قرار الفصل ..

صرخ :

ـ انها فاسدة .. أتعرف ماذا فعلت ؟ لقد أغوت زميلاتها .. أغوت ثلاثا منهن واستدرجتهن الى احدى

الشقق المفروشة .. هـــذه شكوى أوليـــاء أمورهن وشهادات البنات .. انها ...

توقف . حدق فيّ مبهوتا كأنما يعيد اكتشافي .. قال بهمس خائف من قسوة الاجابة :
ـ هل أقامت معك علاقة ؟

هززت رأسي بالايجاب ..
ـ متى ؟..
ـ منذ أن رأيتها هنا ..
ـ مستحيل .. انت رجل عـــاقل .. اسمك .. ابنتك .. شرفك ..

هتفت متوسلا :
ـ أرجوك .. تراجع عن قرار الفصل ..

قال في حدة :
ـ لا تقل انك تنوي الزواج بها ..
ـ لا أدري .. انها هي التي تقرر .. وهذا اسوأ ما في الامر ..

ظللنا صامتين لفترة دون أن أجرؤ عـــلى النظر اليه .. صرخ فجأة :
ـ لا توجد قوة على الارض تجعلني اتراجع عـــن رفدها .. حتى ولا جنونك ..

غرقنا في الصمت مرة أخرى .. كنت أعرف انها تتسمع علينا في الخارج .. قلت :
ـ انك تقضي عليّ ..

انهض . دار من خلف مكتبه . حسبت انه سوف يضربني .. أمسك كتفي وهزّني بعنف ..
صرخ : ـ أيها الاحمق المجنون ، أفق !..
قلت : ـ لقد أعطتني الكثير ..
قال : أنت في حاجة لشيء من الكرامة ..

هتفت يائسا :
ـ لو كنت مكاني لفعلت هذا ..

أرخى ذراعيه .. أدار ظهره .. وهو يهتف :
ـ أنا .. أنا .. أيها العجوز المجنون ..

حاولت أن أمسك يديه .. وهتفت :
ـ لقد أعطتني ما هو أكثر من المهانة ..

أحسست انه على وشك البكاء .. وصاح بي :
ـ كيف تجرؤ على اتهامي ؟..

قلت : لقـــد أصبحنا عجوزين .. وكل الرغبات الانسانية هي نوع من أنواع الجنون ..

تمتم : ـ انت تتهمني ..
قلت : ـ لا اتهمك .. انني أتوسل اليك ..

ضرب صدري بظهر كفه :
ـ أنا ناظر مدرسة .. لست مديرا لبيت دعارة ..

قلت ثائرا :
ـ فلتكن ما تشاء .. أنا لا أريدها أن تهجرني ..

قال في دهشة :
ـ تطلب مني أن أساعدك .. ماذا ستقول ابنتك سامية عن ذلك ؟

قلت كأنني أهذي :
ـ لقد ماتت .. كلهم ماتوا .. وأنا أول الموتى .. انني اتوسل اليك.. أرجوك .. ماذا يجديك أن تمتهنني لهذه الدرجة ؟

صرخ هو أيضا :
ـ سوف أعيدها .. هـذا ابسط ما في الامر .. لكن هذا لن يغير شيئا .. هذا هو قرار الفصل ..

اخرج ورقة من ملف أمامـــه ومزقها في حنق . ارتمى على مقعده وهو يلهث .. كنت أنا أيضا ألهث . والغرفة تردد صدى انفاسنا المتحشرجة . لم أجرؤ على قول كلمة أخرى .. كنا قد أتينا على كل كلمات التوسل والرجاء المبتذلة . نهضت واقفا . حائرا .. رأيت رأسه منكسا .. ظللت واقفا فلم يرفـــع رأسه .. انسحبت متثاقلا . عبرت الباب . لم أرها . رأيت بحرهن الازرق يتهـــامس .. ويشير الي .. والفرّاش يرفع يده في تحية بالغة الفتور .. والعربة العجـوز واقفة وقد بدا عليها انها تعطلت عطلتها الاخيرة ..

رفعت رأسي .. فرأيت وجه حمودة في وجهي.. كان أمامي .. حتى انني شممت رائحة انفاسه المختلطة برائحة السجائر .. كان أمـــامي .. حتى انني رأيت انعكاس صورتي في حدقتي عينيـــه .. وكان أمامي .. لانني لم أر يده وهي تتحرك .. أحسست فقط بالنصل وهو يشقّ ثيابي .. وينغرس في جسدي بسرعة هائلة فلم أحسّ بالالم .. لأول وهلة ..

د. محمد المنسي قنديل